

المبحث الثامن عشر

رحلة التزكية

رحلة التزكية

سبحانك يا الله، جعلت الحمد شكرًا لنعمائك ولعطائك، وجعلت الحمد هو البداية، وجعلت الحمد هو النهاية.

دعواهم فيها، سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم، أن الحمد لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّ لِبَنَاتِنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

والصلاة والسلام على أسعد مخلوقاتك، وأكمل أهل أرضك وسماواتك، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وصاحب الشفاعة العظمى، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، عدد ما أحاط به علمك، وجرى به قلمك، ونطقت به ملائكتك، وشهدت به ملائكتك، وأحصاه كتابك .

اللهم اجعلنا ممن تُفتح لهم أبواب الرحمة، اللهم اجعلنا من الذين يقال لهم: هلموا إلى ربكم، هلموا إلى مغفرة ربكم، هلموا إلى عفو ربكم، هلموا إلى العتق من النيران رحمة من ربكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَأَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

وأى شيء يمنعني من أن أعبد الله الذي خلقني، وإليه تصيرون جميعاً؟ رحلة التزكية إذا ما نظرت إلى السماء وجدتها صافية في حالتها الأساسية، والله ﷻ من علامات قدرته ومظاهر إعجازه في القرآن العظيم، فمن قدرته أنه يبدأ بالسماء أولاً، رغم أن الشخص منا الآن الأرض أقرب إليه، وإلى رجليه وإلى حركته في الحياة، ولكن مظاهر العظمة، ومظاهر النقاء، ومظاهر الصفاء تجدها في السماء قوية، وانظر ماذا قال لك الملك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

أي: أغفلوا حين كفروا بالبعث، فلم ينظروا إلى السماء فوقهم، كيف بنيناها مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، وزيناها بالنجوم، وما لها من شقوق وفتوق، فهي سليمة من التفاوت والعيوب!

كيف بنيناها، فالكيفية أي ليس فيها ثغرات أو اعوجاج، وهي على حالتها المستوية التي خلقها الملك ﷻ، وبعد ذلك في الآية التي جاءت بعدها قال الملك في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧].

أي: والأرض وسَّعناها وفرشناها، وجعلنا فيها جبالاً ثوابت؛ لئلا تميل بأهلها، وأنبتنا فيها من كل نوع حسن المنظر نافع، يَسُرُّ وَيَهْجِ الناظر إليه.

ثم قال: وأنبتنا لك من كل شيء موزون، فدائماً القرآن يبدأ بالسماء من مظاهر العظمة الكبرى، التي نرى آثارها ونستشعرها ونستشعر قدرة الله تعالى فيها، كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧]، أي: أبعثكم أيها الناس بعد الموت أشد في تقديركم، أم خلق السماء؟

وكل إنسان يبني بيتاً، أو يبني قصرًا، أو يبني شيئاً عظيماً فريداً فلا بد أن يأتي الناس بعد أن ينتهي من هذا البناء، وبعد أن يشيد هذا البناء ويقال (لكن) أو يقال: "كان ينبغي أن يفعل"، وهذا البناء جميل، ولكن ينقصه كذا، أما خلق الله تعالى، وأما السماوات السبع، ومظاهر عظمة الله ﷻ لا يأتي بعدها إلا سبحانك اللهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

أي: الذين يذكرون الله في جميع أحوالهم: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وهم يتدبرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: يا ربنا ما أوجدت هذا الخلق عبثاً، فأنت منزّه عن ذلك، فاصرف عنا عذاب النار.

الإنسان كلما يرى نفسه عظيماً شديداً قوياً، وملك شيئاً من هذه الأرض، وحاز من قصورها، وجمالها، وزخارفها، فإنه ينظر إلى عظمة الملك ﷻ،

والمملك يقول لك كما في قوله تعالى: ﴿مَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢].

تلاحظ هنا أن الله تعالى ﷻ تباركت أسماؤه بدأ لك بالسماء، ثم بالأرض، ثم بالجبال، هذه مظاهر العظمة الحقيقية، كلمة البناء توحى لك بعظمة عملية البناء حتى إن الله ﷻ عندما تحدث في سورة الكهف عن سيدنا موسى، وسيدنا الخضر عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

أي: فذهب موسى والخضر حتى أتيا أهل قرية، فطلبا منهم طعاماً على سبيل الضيافة، فامتنع أهل القرية عن ضيافتهم، فوجدا فيها حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط، فعدّل الخضر ميّله؛ حتى صار مستوياً، قال له موسى: لو شئت لأخذت على هذا العمل أجراً تصرفه في تحصيل طعامنا؛ حيث لم يضيفونا ﴿... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

أي: كل عملية بناء لها أطراف، ولها أدوات، ولها مساعدون، ولها كذا وكذا كل بناء على وجه الأرض يؤديه أطراف، أما ملك الله، وأما ما خلق الله تعالى، فإن الله تعالى قوي، فإن الله تعالى كبير، فإن الله تعالى فوق المظاهر والأشياء، وأن الله تعالى فوق ما يرد في عقلك لا تقل: كيف بناها؟ ولا تقل: كيف رفعها؟ إنها رفعها بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والله تعالى هو خالق السماوات والأرض على غير مثال سبق، وإذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له: كن، فيكون.

دائمًا مع كل إعجاز للملك تقول: سبحانه؛ لأنك لا تستطيع أن تستوعب كل هذه الأشياء أو كل هذه الأسرار، تخيل ذات مرة وأنت خارج من بيتك لصلاة الفجر أو إلى صلاة الظهر فوجدت الدنيا بلا سماء هل تخيلت هذا المنظر الموحش؟ وما سيجري عليك بعدها؟ فقال لك الملك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

أي: وجعلنا السماء سقفا للأرض لا يرفعها عماد، وهي محفوظة لا تسقط، ولا تخترقها الشياطين، والكفار عن الاعتبار بآيات السماء (الشمس والقمر والنجوم)، غافلون لاهون عن التفكير فيها.

لأجل هذا كله فإن الصفاء، وإن النقاء كله، وإن الشفافية كلها في لون السماء، ومن العجب أن حالة الزرقة، أي اللون الأزرق الذي في السماء يميل إلى أن يكون فاتحًا، وقد لاحظت بعد صلاة الفجر، وأن السماء متفتحة بالبياض والأزراق أكثر من كونها بالزرقة، سبحان الله! حالة من التمازج الذي يوحى لك بقول الملك ﷻ وتباركت أسماؤه كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَيْنَاهَا وَزَيْنَتَهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

فالسما في حد ذاتها زينة، لونها زينة، شكلها زينة، جمالها زينة، ما أبقت لك من قلبك إلا أن يكون قلبك صافيًا غير متكدر، وإلا أن يكون قلبك رقرقا غير صلب، ولا قاس هذه، المعاني كلها نستشعرها معك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

أي: ولقد زيننا السماء القريبة التي تراها العيون بنجوم عظيمة مضيئة، وجعلناها شهبًا محرقة لمسترقي السمع من الشياطين، وأعدنا لهم في الآخرة عذاب النار الموقدة يقاسون حرها.

الزينة إضافة إلى شيء من الثبات، أي في حالة من الاستقرار في السماء، فأراد الله تعالى أن يزينها كما أن هناك حالة من الاستقرار في الأرض الحياة

ثابتة في الأرض، فيها أناس كثيرون أنهار أي في هذه الأرض، فأراد الله تعالى أن يزين هذه الأرض، فقال الملك في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

أي: الأموال والأولاد بجمال وقوة في هذه الدنيا الفانية، والأعمال الصالحة وبخاصة التسبيح والتحميد، والتكبير والتهليل أفضل أجراً عند ربك من المال والبنين، وهذه الأعمال الصالحة أفضل ما يرجو الإنسان من الثواب عند ربه، فينال بها في الآخرة ما كان يأمله في الدنيا، أراد أن يزين حياة الناس، فيها فزينها بالمال والبنين، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، أي أن الله تعالى خلق السماء، و جعل لها حُرَّاسًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَحْدُ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

أي: وأنا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع؛ لنستمع إلى أخبارها، فمن يحاول الآن استراق السمع يجد له شهابًا بالمرصاد، يُحرقه ويهلكه، وفي هاتين الآيتين إبطال مزاعم السحرة والمشعوذين، الذين يدعون علم الغيب، ويغترون بضعفة العقول؛ بكذبهم وافتراءهم .

فمن يستمع الآن بعد سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الكرام، يجد له شهابًا رصداً، فالذي يريد أن يخترق السمع، وأن يخترق الأجواء العليا التي لا ينبغي اختراقها فإن الله تعالى، قال: يأتي له شهب ونيازك حارقة في الحال؛ فتحرق الجن الذين يسترقون السمع؛ لأجل هذا جعل الله تعالى لهذه السماء بعظمتها حُرَّاسًا، لكن الجميل الذي أقوله لك: هو أن الله تعالى، قال: أنتم أي رب العالمين يسألكم يقول لك راجع نفسك: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: الإنسان كما ذكر الملك ﷺ عن بعض السابقين الذين استطاعوا أن ينشئوا حضارات عظيمة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

أي: ألم تر أيها الرسول الكريم كيف فعل ربك بقوم عاد، قبيلة إرم، ذات القوة والأبنية المرفوعة على الأعمدة، التي لم يُخلق مثلها في البلاد في عظم الأجساد، وقوة البأس؟ لا يوجد حضارة على وجه الأرض لا أمريكا، ولا روسيا، ولا غيرهم، ولا اليابان، ولا الصين، تستطيع أن تصل إلى هذه الحضارة، ولا تستطيع الدول جميعها أن تفعل كما فعل ذو القرنين، لا تستطيع؛ لأن الذي مكن له في الأرض هو الله ﷻ، وليس القوة التي يزعمون، أي قوم عاد فلما وصلوا إلى هذه الحالة من الشدة، والقوة ومن الزهزة الحضارية، ومن الفتنة الحضارية قالوا كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فأما قوم هود، فقد استعلوا في الأرض على العباد بغير حق، وقالوا في غرور: من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله تعالى الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وبطشًا؟ وكانوا بأدلتنا، وحججنا يجحدون، ﴿... هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾

وانظر الفراعنة يقول: الدولة العظمى، وليس العظيمة، وتناسوا أن العظيمة كلها لله الواحد القهار، الدولة العظمى هذه عندما تكون هناك طائرة في مطار من مطاراتها لها موعد معين فتأتي بعض الرياح أو بعض الأعاصير أو تأتي عاصفة فإن جميع المطارات تتوقف، فماذا فعلت القوة العظمى، ويأتي إعصار فيدمر مدناً ومدناً ومدناً وماذا فعلت القوة العظمى؟ ويأتي زلزال فيدكهم دكًا، ويأتي بركان فيهزمهم هزًا، ماذا فعلت القوة العظمى؟ إن القوة العظمى كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أي: ومع كل هذه البراهين القاطعة يتخذ فريق من الناس من دون الله أصنامًا، وأوثانًا، وأولياء يجعلونهم نظراء لله تعالى، ويعطونهم من المحبة،

والتعظيم، والطاعة، ما لا يليق إلا بالله وحده، والمؤمنون أعظم حباً لله من حب هؤلاء الكفار لله ولآلهتهم؛ لأن المؤمنين أخلصوا المحبة كلها لله، وأولئك أشركوا في المحبة، ولو يعلم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك في الحياة الدنيا، حين يشاهدون عذاب الآخرة، أن الله هو المتفرد بالقوة جميعاً، وأن الله شديد العذاب.

لما اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم من دونه، ويتقربون بهم إليه، ﴿أَنَّ أَلْفُ قُوَّةٍ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وتحدث الله تعالى عن عاد عندما قالوا كما في قوله تعالى: ﴿... وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً...﴾

هذا نوع من التحدي، ونوع من الفرعنة، ونوع من القسوة، فرد الله تعالى عليهم ﴿..أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]

وهذا النوع من التعبير أو الكلام يقال له: مقارعة الحججة بالحجة من أشد منهم قوة، فلو قال: الله أشد منكم قوة، فهذا أمر مسلم به لا خلاف عليه، ولكن الله ﷻ أراد أن يذكرهم بأن الذي خلقهم وهو الذي أعطاهم القوة، وبفعل هذه القوة التي أعطاهم إياها وأقاموا الحضارات، وشيدوا الإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وما شيدوها إلا بقوة الله ﷻ، وبقدرة الله تعالى الذي أعطاهم أيادٍ قوية، وأعطاهم أفكاراً وأعطاهم هندسة فلكية، وأعطاهم أشياء كثيرة استطاعوا أن يفعلوا هذا من أين جيء لهم بهذه القوة، وهذا العطاء، وهذا النفوذ فالشيطان سول لهم أن هذا من أنفسهم، هذه قدرتهم أنتم، وهذه حضارتكم فمن أشد منا قوة، فرد عليهم الملك الرحمن الرحيم قائلاً: ﴿... أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

ولذا قال الملك ﷻ موضحاً عظمته وشدته وقوته في سورة النازعات: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ أَلَسَمَاءُ بَنَاهَا ﴿٣٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٣٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢]

أيهم أصعب في الخلق؟ وليس هناك شيء صعب على الله تعالى أبداً، وليس هناك شيء مستحيل على الله تعالى أبداً، فإن الله تعالى قال: أنتم أيها الناس أشد خلقاً أم السماء بناها وأغطش ليلاً، بمعنى أنه لم يكن هناك ليل قبل هذا كان الليل والنهار على شاكلة واحدة، أي: لا تميز فيها بين الليل والنهار، سبحان الله هذا شيء عجيب في بداية الخلق، ولا يعلم هذا إلا الله ﷻ .

كما ذكرها من قبل في سورة الإسراء عندما قال لك الملك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوًى آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصيلاً﴾

[الإسراء: ١٢]

أي: وجعلنا الليل والنهار علامتين دالّتين على وحدانيتنا وقدرتنا، فَمَحْوًى علامة الليل، وهي القمر وجعلنا علامة النهار وهي الشمس مضيئة؛ ليصر الإنسان في ضوء النهار، كيف يتصرف في شؤون معاشه، ويخلد في الليل إلى السكن والراحة، وليعلم الناس من تعاقب الليل والنهار عدد السنين، وحساب الأشهر والأيام، فيرتبون عليها ما يشاءون من مصالحهم، وكل شيء بيناه تبيناً كافياً.

هذا معنى قوله تعالى: وأغطش ليلاً، أي: صار مظلماً ولم يكن ليلاً مظلماً من قبل، وهو الخالق ﷻ، وهذه آيات من القدرة التي لا نهاية لها، لو استشعرنا معاني هذه الآيات تنزل مع هذه الآيات؛ حيث تجد أن الله ﷻ يريد أن يعيشك الآيات، وفي الوقت نفسه لا تأخذك العزة بما يصل إليه بعض الناس من اعتزاز بحضارتهم وأنفسهم وبقدرتهم، ولأجل هذا فإن كل ما فعله البشر على وجه الأرض من أهرامات الفراعنة، وسور الصين العظيم.... إلخ كل هذه الأمور، كان الجن يفعلون أكثر منها وأقوى منها، وأشد منها في عهد سيدنا سليمان عليه السلام، وكانوا ينشئون ولا يزالون .

إن الله تعالى يقول لنا: كلّمَا وصلت إلى شيء من القوة والغرور، تذكر أن الواهب هو الوهاب، وأن المعطي القدير هو رب الملك والملكوت، هو ذو الجلال والإكرام، القائل كما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨].

أي: ما خَلَقَكُمْ أيها الناس، ولا بَعَثَكُمْ يوم القيامة في السهولة، واليسر إلا كخَلَقَ نفس واحدة وبعثها، إن الله سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم، وسيجازيكم عليها .

ويقول الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

أي: خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض، أكبر من خَلَقَ الناس، وإعادتهم بعد موتهم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن جميع ذلك خلقه هَيِّنٌ على الله.

اللهم اجعلنا من سعداء الدنيا والآخرة، اللهم نورنا بنور القرآن، وزينا بزينة القرآن واجعلنا ممن أحبوا القرآن؛ فانطلقوا بالقرآن آناء الليل وأطراف النهار .

وأن يكون قلبك دائماً في حالة نقاء، وأن تكون لك خصلة صالحة، هكذا نعود إلى الخصلة الصالحة مرة ثانية فقد كان سفيان الثوري رحمه الله له خصلة صالحة.

حيث كان سفيان الثوري يحب الصدقة، ويجب أن يتصدق، وربما يكون بشيء بسيط، ربما يكون بتمر، ربما يكون بشيء يبدو لك هيناً، لكنه عند الله تعالى عظيم؛ لأن الله تعالى ينمي هذه الصدقات، وكان ﷺ إذا قابل فقيراً، أو سأله سائل فكان يقول: مرحباً بمن تغسل به ذنوبي؛ أي: أن الإنسان لكي تغسل ذنوبه عندما يشعر بقسوة في قلبه، عندما يشعر بجمود عينيه، أي كان بكاءً فانقطع البكاء عندما يشعر أن لسانه ليس ذاكرةً ولا ذكارةً،

ومن قبل كان ذاكراً، وكان ذكراً كان يتصدق فإن الله تعالى يغيبه، ويجبر كسر قلبه، فإن الله تعالى يدخله في باب موجبات الرحمات.

ومن موجبات الرحمات أن الإنسان يبحث عن أشياء تغسل ذنوبه، مما يغسل به الذنوب، ومما كان يفعله سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أنه كلما رأى فقيراً فإنه كان ينادي على الفقير ويعطيه ما تيسر، ويجعل يده هي السفلي، ويد الفقير هي العليا، ثم يقول له: مرحباً بك لقد غسل الله تعالى ذنوبي بك؛ ولذا قال الملك عن الشيء الذي يزكك والذي يطهره والذي يغسل أوزارك ﴿حُدِّثْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْنَهُمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: خذ أيها النبي من أموال هؤلاء التائبين الذين خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً صدقة تطهرهم من دنس ذنوبهم، وترفعهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم منها، إن دعائك واستغفارك لهم رحمة وطمأنينة، والله سميع لكل دعاء وقول، عليم بأحوال العباد ونياتهم، وسيجازي كل عامل بعمله.

تطهرهم، أوليس هذا كافياً يا رب أن الإنسان عندما يتصدق يتطهر، أي: لا تبقى عليه خطيئة واحدة، ويصير طاهراً مطهراً إذن تظل الصدقات باباً من أبواب طهارة القلب، وطهارة النفس، وطهارة العمل، وفي الوقت نفسه فإن الإنسان يتزكى بها، أي: يتطهر بها ويتنور بها، وإذا ما تطهر بها صار فالحاً، و صار من المفلحين، فقال لك الملك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

أي: قد فاز من طهر نفسه من الأخلاق السيئة، وذكر الله، فوحده ودعاه، وعمل بما يرضيه، وتزكى أي تطهر وتطهر؛ أي: تصدق وتصدق، أي بذل المعروف، وبذل المعروف أي صار مفتاحاً للخير، ولو لم يمتلك مالاً لا

مشكلة، ولكن عندنا ما هو أفضل من المال تصدق بالكلمة الطيبة تعال صل العصر، عندما تسمع الأذان، ولا تسمع أغاني في جميع الأوقات، وساعة الصلاة لا تسمع أغاني، ولا تشغل مكبرات الصوت في الأشياء اللاهية العابثة، تصدق بالكلمة، على سبيل المثال: يقول أنا لست خطيباً بارعاً ولا خطيباً مفوهاً ولا إماماً فصيحاً، ولا أعرف كلمات الوعظ، ولكنني أستمع جيداً، وكذلك التصدق بكف آذاك عن الناس أي أنت داخل في باب الرحمة شئت أم أبيت، لكن بشرط أن تكون مستعداً لها، حتى قديماً قالوا: يُثاب المرء رغم أنفه، أي: الشخص يُثاب رغم أنه لم يكن ساعياً إلى باب الثواب، ولكنه أثيب رغم أنفه، كمن كان في الشارع وهو ليس مصلياً ولا من أهل الصلاة، فقابل رجلاً له عنده حاجة ثم جاء ميعاد الصلاة، وقال له: تعال نصل، فذهب وصلى معه لحياته لكونه له حاجة لديه لعل صلاته هذه تكون باباً له من أبواب الخير، لعل قلبه يدق بالإيمان في هذه اللحظة، فيُثاب المرء رغم أنفه .

كمن كان في غير رمضان فاستيقظ من النوم في الصباح الباكر يبحث عن طعام في منزله فما وجد فقال: سأصوم هذا اليوم، يجوز هذا في أيام التطوع أن الإنسان لم يكن عاقداً النية على الصيام. كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

والذي يعمل أعمالاً حرفية كالذي يعمل في الفلاحة أو في فرن أو في أعمال السباكة... أي: من هؤلاء تُقام عليهم الحضارات أصحاب القوة وهو يشتغل يخرج من الشغل كل يوم يغتسل أو يغير ملابسه بعد أن يعود من العمل وقد اعتراه عرق شديد ولكنه لا يستحم كل يوم يأتي عليه عرق أشد فصارت رائحته لا تطاق، فقال له أحد الناس: لماذا لا تستحم؟ قال له: ليس عندي وقت لهذا، فقال له: أتدري ما جلبت على نفسك؟ لقد جاءتك أمراض جلدية وكذا وكذا... ألا تزكي نفسك؟ أي: كلما أرهقت

نفسك واتسخت ملابسك فإنك تغيرها أو تستحم، قال له: سأفعل قال له: هكذا الصلاة .

لقد قال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، ويغتسل فيه كل يوم خمسا، ما تقول ذلك يبقى من درنه شيئا»^(١).

ماذا يفعل بعد هذا: هل يبقى من درنه شيء بعد هذا؟ قالوا: لا يا رسول الله، نظيف، وطاهر. قال ﷺ: «كذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهن الخطايا» ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

من تطهر ومن نقى نفسه لله تعالى، وإن أفضل سبيل للتركية والتنقية وأي كل إنسان بعد الاغتسال والوضوء يستشعر براحة تامة مجرد أنه يفتح الماء ويتوضأ ويسري الماء في وجهه وفي يديه والذنوب تتناثر وتتناثر يستشعر براحة عجيبة، بعد أن يستشعر هذه الراحة كيف يستغل هذه الراحة بعد أن اغتسل وتطيب وذكر اسم ربه؟

إن كل تركية هي في الأساس ذكر لله تعالى، والذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه كممثل الحي والميت، كما أخبر المعصوم ﷺ، «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»^(٢) أي أنه ذكر اسم ربه؛ فهم إلى الصلاة.

فقد كان يقول النبي ﷺ: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها»^(٣) شوقنا بها يا بلال، خذنا إليها يا بلال فقال لك الملك ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، أي: إني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا، لا شريك لي، فاعبدني وحدي، وأقم الصلاة لتذكرني فيها.

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، رقم الحديث: ٤٩٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل، رقم الحديث: ٥٩٢٨.

(٣) سنن الترمذي، كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة، رقم الحديث: ٤٣٣٣.

هنا قدم الصلاة على الذكر في سورة طه، وكما جاء في قوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿وَذَكَرْ أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلِّ﴾ [الأعلى: ١٥]، أي: وأقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله وامثالاً لشرعه.

قدم الذكر على الصلاة أي: أن الإنسان قبل أن يأتي ليصلي لابد وأن يكون قلبه ولسانه في حالة ذكر، وفي حالة خشوع، وفي حالة رجاء لله تعالى ﷻ، كذلك عندما يتجه ناحية القبلة لابد وأن يستقبلها بدعاء الاستفتاح الذي تحدثنا عنه من قبل .

إن الذي يسبح وقتاً طويلاً حتى يأتي ميعاد الصلاة يقول: أنا أذكر الله، ذكرك في صلاتك، هدايتك في الصلاة، وأقم الصلاة لذكري، إذا ما أقمت الصلاة؛ فإنك صرت في هذه البداية ذاكرًا، ويمكن أن تكون ذكَّارًا لله ﷻ، علمنا كيف نتزكى؟ وكيف أزكى نفسي؟ وكيف أطهر قلبي؟ فقل له كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَأ ﴿١٨﴾﴾

[النازعات: ١٧ - ١٨]

أي: هل أتاك أيها الرسول خبر موسى؟ فقل له: أتودُّ أن تطهَّر نفسك من النقائص، وتحليها بالإيمان، أي: يا موسى فقل هل لك أن تزعم يا فرعون؟ أنك متعاضم هل لك يا فرعون أن تذوق حلاوة الإيمان؟ هل لك إلى أن تزكى؟ الإنسان الذاكر إذا كان ذاكرًا فعلاً، يستطيع أن يؤدي أعمالاً كثيرة في وقت واحد، أي من الممكن للإنسان أن يسمع ويشاهد، وفي الوقت نفسه فإنه يؤدي أعمالاً أخرى، فضلاً عن كونه شاهداً وعن كونه مستمعاً.

اللهم لا تعذب هذه الأيدي المتضرعة، اللهم لا تعذب هذه الألسن الذاكرة،
اللهم لا تعذب هذه العين الدامعة، اللهم لا تعذب هذه الأقدام الساعية،
اللهم لا تعذب هذه القلوب الوجلة.

اللهم لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا
إليك يوم القيامة ناظرة، يا ربنا لا تعذب ألسنة تخبر
عنك، يا ربنا لا تعذب ألسنة تحب الناس في رحمتك .

اللهم لا تعذب أعيننا تشتاق إلى شرف النظر إلى وجهك
الكريم، اللهم نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك
والنار، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه الكرام، صلاة مقرونة بالجمال والحسنى والكمال،
والخير والإفضال، عدد الأقطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد
زبد البحار، وعدد الأنهار، وعدد رمل الصحارى والقفار،
وعدد ثقل الجبال والأحجار، وعدد أهل الجنة والنار، وعدد
الأبرار والفقار، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .
